

## عجائبية الرحلة الكرامية

"الرحلة الكرامية في كتاب التشوّف إلى رجال التصوّف لابن الزيات التادلي أنموذجاً"

د. رؤى قدّاح\*

(تاريخ الإيداع 10 / 4 / 2018. قبل للنشر في 10 / 6 / 2018)

### □ ملخّص □

ينقسم هذا البحث إلى شقين؛ أولهما نظري يوضح مصطلحي العجائبي والكرامة، ويفصل القول في معنى "الرحلة الكرامية"، وفي "عجائبية النص الكرامي" بوصفها عجائبية خاصة، تتمثل عناصر العجائبي، وتضيف إليها ما يتوافق مع طبيعة الكرامة. وثانيهما تطبيقي يحلل نصوص الرحلات الكرامية في كتاب "التشوّف". وأبرز نتائج: اتساع زمن التردد في الرحلات الكرامية، وتغيّر المعيار المعتمد في الحكم على النص بحسب موقف المتلقي القبلي من الكرامة، وبروز شبكة موضوعات "الأنا"، وغياب شبكة موضوعات "الأنت"، وتلاشي الوظيفة الأدبية في الرحلات الكرامية المكتفة في خبر أو قول، وظهور وظيفتين جديدتين للعجائبي في الرحلات الكرامية، هما: الوظيفة التعليمية، والوظيفة المعرفية، إضافة إلى الوظيفتين الرئيسيتين للعجائبي: الأدبية والاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: العجائبي، الكرامة، الرحلات الكرامية، التشوّف، ابن الزيات التادلي.

\* مدرسة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

**The fantastic of dignified journey**  
**"The dignified journey in Al-tashwof ela rejat altasawof by Ibn**  
**Al-Zayyat Al-tdeli an example"**

**Dr. Roaa Kaddah\***

(Received 10 / 4 / 2018. Accepted 10 / 6 / 2018)

□ **ABSTRACT** □

This research is composed of two parts: The first is theoretical and applicational. The theoretical section clarified both The fantastic and dignified terms. It elaborates saying in "The fantastic of dignified journey" described fantastic especially for representing features of the fantastic. Moreover it adds to what corresponds to the dignity nature. On the other hand the applicational section analyses texts of the dignified journeies in altasawof. It also reveals several important results of this section like expanding time frequency of the dignified journey, the changeable criterion based in texts in judging texts according to the tribal receiver of dignity. Furthermore, there appeared a lot of topics like "subjects of I", with absence of "subjects of You" ones. Another thing resulted there the vanishing of literary mission in the condensed dignified journeies through news or a statement. At last, there appeared two new functions for fantastic teaching and cognitive, in addition to the main tasks of the fantastic: literary and the socialistic ones.

**Key words:** fantastic, dignity, dignified journey, Ibn Al-Zayyat Al-tdeli, Al-tashwof.

---

\* Assistant Professor, Department of Arabic Language & Literature· Tishreen University, Syria.

## مقدمة

يُعدّ النص الكرامي نصاً بكاراً جذاباً مهما تكاثرت حوله الدراسات وتعددت المنطلقات والرؤى، ومردّ ذلك إلى طبيعته الثرية، فهو نص مشاكس يقع على حافة الأدب والتاريخ والمقدس. ولا شك في أن بروز الخوارقي فيه يشكل دافعاً رئيساً لدراسته بوصفه نصاً عجائبياً يربك المتلقي، ويخلف في نفسه حيرة قد تنتهي بشعوره بمتعة جمالية صرف، وقد لا تنتهي، ويبقى الحكم على النص معلقاً في فضاء الإرجاء.

## أهمية البحث وأهدافه

يقدم هذا البحث تعريفاً بمصطلح "العجائبي"، وبالرحلة الكرامية وطبيعتها، ويفصّل القول في عجائبيّة النص الكرامي، بوصفها عجائبيّة خاصة، تتمثل عناصر العجائبي كما حددها "تودوروف"، وتضيف إليها ما يتوافق مع طبيعة الكرامة الإشكالية، وتقضي ما لا يتوافق معها، ويتبع هذا التعريف دراسة تطبيقية تحلل نصوص الرحلات الكرامية في كتاب "التشوف"، لترصد من خلال ذلك عناصر العجائبي فيها، وموضوعاته، ووظائفه.

## منهجية البحث

يرتكز هذا البحث على منهج التحليل النصي، ويقوم على تحليل الرحلات الكرامية في كتاب "التشوف"، ليتبين من خلالها خصائص عجائبيّة النص الكرامي، وأهمّها: اتساع زمن التردد، وغياب شبكة موضوعات الأنا، و بروز وظائف جديدة للعجائبي. مستنداً إلى الضبط المصطلحي للمصطلحين الرئيسيين اللذين بني عليهما البحث، وهما: العجائبي، والكرامة، فضلاً عن الاتكاء على ما ألحق بهما من تعريف بعجائبيّة النص الكرامي.

## المدخل

لم يقتصر الجدل النقدي الدائر حول كتاب "مدخل إلى الأدب العجائبي" لـ "تودوروف" على نقد نظريته، ولاسيما فيما يتعلق بتجنيس العجائبي، ومحاولة الإضافة إليها<sup>1</sup>، وحسب، وإنما تعدّاه إلى رفض بعض النقاد لما جاء في كتابه حول الأصل الغربي للعجائبي، وعلى رأسهم الناقد كمال أبو ديب الذي رأى أن نسبة "تودوروف" ابتكار العجائبي إلى الغرب ما هي إلا ادعاء صريح ينسجم مع ادعاءات تقريمية سابقة نالت من العرب، كادعاء رينان بأن العرب لا خيال لهم، وأنهم عالقون بالحسي المباشر. وحاول من خلال مقدمته الطويلة التي مهّد بها لتحقيقه لكتاب "العظمة" تفنيد زعمي رينان و"تودوروف"، وإثبات أن العجائبي إبداع عربي صرف، ودليله احتشاد التراث العربي بهذا النمط من الخيال الجامح للخلاق، ككتب السير، ورسالة الغفران، ومنامات الوهراني، وأدبيات الإسراء والمعراج، والكرامات<sup>2</sup>. ولسنا هنا في معرض مناقشة رأي "كمال أبو ديب"، وإنما يعيننا تحقيقه القيم لكتاب "العظمة"، بوصفه نصاً عجائبياً دينياً، يغري بدراسة الكرامة بوصفها، هي الأخرى، نصاً عجائبياً، لكنّ حديث بعضهم عن العلائق الوثيقة بين الكرامة من جهة

<sup>1</sup> - ينظر: تودوروف، تزفيتن، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصديق بو علام، مراجعة: محمد برادة، ط 1، دار شرقيات للنشر، القاهرة، مصر، 1994. مقدمة المترجم./ علام، حسين، العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، ط 1، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار العربية للعلوم، لبنان، 2010م. 16 حتى 45.

<sup>2</sup> - أبو ديب، كمال، الأدب العجائبي والعالم الغرائبي في كتاب العظمة وفن السرد العربي، ط 1، دار الساقى بالاشتراك مع دار أوريس للنشر، اكسفورد، بريطانيا، 2007م. 9-10-13.

والخرافة، وفنون السحر، وعلم الكيمياء، والأسطورة، والقصص الديني، من جهة ثانية، وأنها اجتافت مضمونها، وأعدت إنتاجها، وكثفت رموزها في رمز قدسي واحد هو اسم الله الأعظم<sup>1</sup>، يجعلنا أمام عجائبية خاصة سنجلو سماتها من خلال تحليلنا للرحلات الكرامية في كتاب "التشوف"، بعد مهاد لازم نعرّف فيه بالعجائبي، والكرامة، وعجائبية النص الكرامي، والرحلة الكرامية.

### العجائبي لغة واصطلاحاً

العجائبي مصدر صناعي من النسبة إلى الجمع "عجائب"، وهو من الجذر اللغوي "عَجِب، يعجب". والتعجب، لغةً، (حيرةٌ تعرضُ للإنسان عند سببٍ جهلِ الشيء، وليس هو سبباً في ذاته، بل هو حالةٌ بحسبِ الإضافة إلى من يعرفُ السببَ، ومن لا يعرفه، ولهذا قال قومٌ: كلُّ شيءٍ عَجَبٌ، وقال قومٌ: لا شيءٌ عَجَبٌ)<sup>2</sup>. والعُجْبُ والعَجَبُ (إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده)<sup>3</sup>، وأصله في اللغة، بحسب الزّجاج، (أن الإنسان إذا رأى ما ينكره، ويقلّ مثله، قال: عجبت من كذا)<sup>4</sup>، وقصر ابن الأعرابي معناه على اللامألوف، فقال: (العَجَبُ النظرُ إلى شيءٍ غير مألوف، ولا معتاد)<sup>5</sup>، وهو بذلك موافق لمعنى الغريب، لغةً؛ إذ ذكر أنه اللامألوف، واللامأنوس. وقد عرّف القاضي الجرجاني العجب بأنه (تغيّر النفس بما خفي سببه، وخرج عن العادة مثله)<sup>6</sup>، وشببه به تعريف الكفوي له بأنه (روعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء)<sup>7</sup>، وقد خصّ الإمام القزويني العجيب بالمقدمة الأولى من كتابه، وعرّفه بأنه (الحيرةُ تعرضُ للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء، أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه)<sup>8</sup>، وضرب له مثلاً خلية النحل التي يعجب رائيتها من صنعها إذا كان يجهل أن النحل صانعها، وأتبع تعريفه بقوله: (فإذا رأى بغتة حيواناً غريباً، أو فعلاً خارقاً للعادة انطلق لسانه بالتسبيح، فقال: سبحان الله، وهو يرى طول عمره أشياء تتحير فيها عقول العقّل)<sup>9</sup>. وبإمعان النظر في هذه التعريفات للعجب نقول إنه ليس صفة لازمة أصيلة في الشيء أو الحدث، وإنما هو حال عارضة مؤقتة، إنكار، أو حيرة، أو تغيّر في النفس، أو روعة، يحرضها الشيء المفارق للألفة، أو الفعل الخارق للمعتاد المأنوس في الإنسان، فتننتج حكماً نسبياً يثبت الجهلُ بالشيء المثير للحيرة، وتنفيه المعرفةُ بأسباب العجب، وقد أشار القزويني إلى أن ألفة العجيب وإدراك سببه يزيلان العجب، ويجعلانه مألوفاً.

والعجائبي، اصطلاحاً، هو المقابل العربي لمصطلح "Fantastic" الذي استخدمه "تودوروف" عنواناً لكتابه، وقد ترسخ حضوره بعد ترجمة الصديق بوعلام للكتاب، وهو ما أدى إلى تراجع بعض النقاد عن استخدام بعض المقابلات الأخرى، وإلى التزام مصطلح العجائبي، وكان د. لؤي خليل قد أحصى سبعة عشر نظيراً عربياً لمصطلح "Fantastic"، أوردها بحسب شيوعها، وهي: العجائبي، الغرائبية، الفانتاستيك، الفانتاستيك، العجيب، الخارق، الوهمي،

<sup>1</sup> - زيعور، علي، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ط 2، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1984م. 22-25-27-29-52-53-61-72.

<sup>2</sup> - الزبيدي، تاج العروس من جوهر القاموس، تح: عبد الستار فراج، مطبعة حكومة الكويت، 1965م. 319/3.

<sup>3</sup> - ابن منظور، لسان العرب، أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ط 3، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 1999م. 51/9.

<sup>4</sup> - المصدر نفسه، 51/9.

<sup>5</sup> - المصدر نفسه، 51/9.

<sup>6</sup> - الجرجاني، الشريف، التعريفات، د.ط، بيروت، مكتبة لبنان، 1985م. 152.

<sup>7</sup> - الكفوي، أبو البقاء، الكلّيات، أعده للطبع: عدنان درويش ومحمد المصري، ط 2، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، 1998م. 655.

<sup>8</sup> - القزويني، زكريا بن محمد، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط 1، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، 2000م. 10.

<sup>9</sup> - المصدر نفسه، 10.

الاستيهامي، الخوارقي، الخيالي، الغريبة، الفانتازيا، الخرافة، الغريب، الغريب والمدهش، كتابة العجيب والغريب، اللامعقول<sup>1</sup>.

عرّف "تودوروف" العجائبي بأنه (التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية فيما يواجه حدثاً فوق طبيعي حسب الظاهر، فالمفهوم يتحدد، إذن، بالنسبة إلى مفهومين آخرين، هما الواقعي والمتخيّل)<sup>2</sup>، وكي يكتمل تعريفه تعريفه به بوصفه جنساً أدبياً حدّد شروطه وموضوعاته ووظائفه، أما الشروط فتلاثة؛ أولها وثالثها ملزمان حتميان، ينبغي توافرها في النص لينتمي إلى العجائبي، وثانيها غير حتمي. يتملّل الأول في أن يدفع النص قارئه إلى التعامل مع الأشخاص في النص بعدّهم شخصيات حقيقية حيّة، وأن يتردد بين تقديم تفسير طبيعي وفوق طبيعي لأحداث الرواية. أما الشرط الثاني فهو أن يكون ذلك التردد ملموساً عند شخصية من شخصيات النص، وهو ما يدفع القارئ، في حال القراءة السانجة، إلى التماهي معها، وأما الشرط الثالث فهو أن يختار القارئ قراءة معينة للنص، ويقصي القراءتين: الشعرية والرمزية<sup>3</sup>.

اعترف "تودوروف" أن عمر العجائبي قصير؛ فهو لا يدوم إلا (زمن التردد: تردد مشترك بين القارئ والشخصية)<sup>4</sup>، وأنه محفوف بالمخاطر، مهدد بالتلاشي، وهو ما دفعه إلى الدفاع عن أهمية زمن التردد، وتبني رأي لويس فاكس بأن (الفن العجائبي المثالي يعرف كيف يحافظ على ذاته في الحيرة والتردد)<sup>5</sup>، ويبيّن أنه من الخطأ الادعاء الادعاء بأن العجائبي لا يوجد إلا في جزء من الأثر، (فهناك من النصوص ما يحافظ على الالتباس حتى النهاية)<sup>6</sup>، ثم وجد لزاماً عليه أن يقف مطولاً عند الجنس المشاكسين الحاقين بالعجائبي، اللذين يهددان بالتلاشي، وهما العجيب والغريب؛ فاتخاذ المتلقي قراراً بشأن النص يعني تحرره من الحيرة والقلق، وخروج النص من العجائبي إلى الغريب في حال كان الحدث موافقاً لقوانين الطبيعة، أو خروجه إلى جنس العجيب إذا قرر المتلقي أن الحدث تحكّمه قوانين فوق طبيعية. ثم فصل القول في جنس يشكلان خطراً يتهدد العجائبي، وهما الشعر والإليغورية؛ فالشعر، وفق رأيه، لا يكون عجائبياً، والقراءة الشعرية تقتل العجائبي. وكذا الإليغورية التي بطبيعتها تفترض معنى مزدوجاً محدداً غير متعلق بالتأويل الاعتباطي، أو غير الاعتباطي للقارئ؛ ولذا فإن القراءة الإليغورية = الرمزية للنص العجائبي تنفي شروطه، وتعني موته<sup>7</sup>.

أما مظاهر النص العجائبي فتلاثة، هي: المظهر اللفظي، وهو مرتبط بالشرط الأول، والمظهر التركيبي، وهو مرتبط بالشرط الثاني، والمظهر الدلالي، وهو مرتبط بالشرط الثالث، ومن خلالها حدّد "تودوروف" جملة من السمات التي تميز العجائبي، أولها: أن الخطاب البلاغي سمة من سمات الملفوظ العجائبي؛ وثانيها: أن (السادد المسجد يناسب العجائبي تمام المناسبة)<sup>8</sup>؛ ولذا يتم التلقّف باستخدام السارد ضمير الشخص الأول "الأنا"، وهو ما يحقق أمرين،

<sup>1</sup> - خليل، لؤي، تلقي العجائبي في النقد العربي الحديث (المصطلح والمفهوم)، ط 1، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، سوريا، 2005م. 26.

<sup>2</sup> - تودوروف، تزفيتن، مدخل إلى الأدب العجائبي، 19.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، 48-49-50.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، 57.

<sup>5</sup> - المرجع نفسه، 58.

<sup>6</sup> - المرجع نفسه، 58.

<sup>7</sup> - المرجع نفسه، 70-71-72. (عرف "تودوروف" الإليغورية بأنها: عبارة مزدوجة المعنى، لكن معناها الحقيقي والحرفي امحى تماماً).

<sup>8</sup> - تودوروف، تزفيتن، مدخل إلى الأدب العجائبي، 88.

هما: خلق حالة الشك والحيرة في نفس المتلقي بين التصديق وعدمه، والسماح له بالتماهي مع الشخصية. وثالثتها: العقدة في الحكى العجائبي، وتعني وجود أثر فريد في نهاية الحكى يدفع عناصر الحكى كلها باتجاه هذا الأثر، وهذه السمة ترتبط بالمظهر التركيبي للنص العجائبي<sup>1</sup>. ورابعها: التركيز على أهمية دور القارئ في النص العجائبي، والإشارة إلى زمن القراءة وضرورة قراءة النص العجائبي من أوله إلى آخره كي لا يفقد أثره في المتلقي، والتنبية على الاختلاف بين القراءة الأولى للنص العجائبي والقراءة الثانية التي وصفها "تودوروف" بأنها تشغل برصد إجراءات العجائبي بدلاً من تلقي سحره، وتحوّل إلى ميّتا قراءة = ما وراء قراءة، وهذه السمة ترتبط بعملية التلقظ وبالخاصية الدالية للنص العجائبي، وهي خاصية مائزة للعجائبي بوصفه إدراكاً خاصاً لأحداث غريبة<sup>2</sup>.

لا يختلف ما يعالجه العجائبي نوعياً عما يعالجه الأدب عامة، لكنه يختلف في الكثافة التي تصل في العجائبي إلى حدها الأقصى بحيث تصبح المبالغة معياراً له، وقد قسم "تودوروف" موضوعاته إلى شبكتين؛ الأولى: شبكة موضوعات "الأنا"، والثانية: شبكة موضوعات "الأنت". توصف الشبكة الأولى بأنها تحقيق للعلاقة بين الإنسان والعالم، ومن خلالها تتم معرفته بالعالم، ومعرفة علاقته به، والمبدأ المولد لموضوعات الشبكة هو العبور الممكن بين الروح والمادة، وعناصرها الأساسية، هي: السببية الخاصة، والحتمية الشمولية، ومضاعفة الشخصية، وتحطيم الفاصل بين الذات والموضوع، وتحولات الزمن والفضاء<sup>3</sup>. يرتبط مفهوم السببية الخاصة بحضور كائنات فوق طبيعية في الأدب العجائبي بوصفها أحد ثوابته التي ترمز إلى الحلم بالقوة، وتنهض مقام سببية ناقصة تعلّل أحداثاً يومية تُسبب إلى المصادفة، وهي بحسب وصفه (معزولة غير موصولة على نحو مباشر بالسلاسل السببية الأخرى التي تضبط حياتنا)<sup>4</sup>. أما الحتمية الشمولية فتعدّ المبدأ الأهم في شبكة موضوعات الأنا، لأنه يحطم الفواصل بين المادة والفكر، والروح والجسد، فتختلط الأشياء بالكلمات، ويصبح العبور الروحي جسدياً، وتمّحي الفواصل بين الذات والموضوع، وتختفي الحواجز بين الأنا والعالم الخارجي، وتتضاعف الشخصية فيصير الشخص أشخاصاً عديدين، وتصير التحولات -كتحوّلات الأبطال إلى حيوانات متوحشة أو طيور- أمراً ممكناً<sup>5</sup>، و(يتسرب العالم المادي والعالم الروحي أحدهما إلى الآخر)<sup>6</sup>. أما في "شبكة موضوعات الأنت" فيحاول الإنسان أن يعي نفسه، ويدرك رغباته من خلال ولوجه عوالم اللاشعور، والمبدأ المولد لموضوعاتها هو الرغبة الجنسية، ومن مظاهرها: المثلية الجنسية، وضروب الشذوذ، والعلاقات المثلية، وانتهاك المحرم<sup>7</sup>.

ذكر تودوروف وظيفتين للعجائبي: اجتماعية، وأدبية. تتمثل الاجتماعية بقدرة العجائبي على وصف عالم عجائبي لا وجود له خارج اللغة، وياقتحام الممنوع والمحظور في العرف الاجتماعي. وتتعلق الثانية = الأدبية بالنص نفسه، وتتجلى في قدرة العجائبي على خلق أثر خاص في القارئ، كالخوف، أو الهلع، أو حب الاستطلاع. وتتجلى أيضاً في خدمته للسرد من خلال خلق حالة من القلق والتشويق والاحتفاظ بالتوتر. وقد أعلن "تودوروف" أن الوظيفتين

1 - المرجع نفسه، 90.

2 - المرجع نفسه، 91-92-95.

3 - المرجع نفسه، 96-111-116-130.

4 - المرجع نفسه، 109.

5 - المرجع نفسه، 109-111-112-113-114.

6 - المرجع نفسه، 114.

7 - تودوروف، ترفيتن، مدخل إلى الأدب العجائبي، 121 حتى 130.

شيء واحد، لأنهما معاً تمثلان انتهاكاً للقانون سواء داخل الحياة الاجتماعية، أو داخل المحكي، ونسفاً للقواعد القائمة سابقاً<sup>1</sup>.

### الكرامة لغة واصطلاحاً

الكرامة، لغةً، من الكرم، وهو نقيض اللؤم، وهي (اسم يوضع للإكرام)<sup>2</sup>، والكريم (الذي كرم نفسه عن التدنّس بشيء من مخالفة ربه)<sup>3</sup>. والكرامة، اصطلاحاً: (ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقروناً بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً، وما يكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة)<sup>4</sup>، فالفارق الفصل الفصل بينها وبين المعجزة هو اقتران المعجزة بالنبوة، ووجوب الجهر بالمعجزة، ولزوم الستر في الكرامة على اختلاف في رأي العلماء، واقتران المعجزة بالتحدي، وقصور الكرامة عنها في درجة الغرابة. وقد اختلف العلماء وأهل التصوف حول مسألتي القصد في الكرامة، وقصرها على الأولياء، فمنهم من قصرها على الأولياء<sup>5</sup>، وأثبتها وإن كانت تدخل في باب المعجزات كطيّ الأرض والمشى على الماء، ورأى أنها تجري على الأولياء من حيث لا يعلمون، أما الأنبياء فتكون لهم المعجزات وهم بها عالمون<sup>6</sup>، ومنهم من قال إنها تجري على العبد وهو عالم بها، وتقع للوليّ وللمن صلح من من العباد، أو من أريد لهم الصلاح، وهي ليست شرطاً للولاية، ومنهم من جوز الحالين<sup>7</sup>. والولاية هي: (قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه غاية مقام القرب والتمكين)<sup>8</sup>، وهي شرعية في قوله تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون\* الذين آمنوا وكانوا يتقون\* لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم)<sup>9</sup>، وفي الحديث الشريف: (إن الله تبارك وتعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعينه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته)<sup>10</sup>. وشرط الكرامة صدورها عن عبد يحفظ الحدود ويلزم الشرع، وقد روي عن البسطامي: (قيل لأبي يزيد رحمه الله، فلان يقال: إنه يمرّ في ليلة إلى مكة. فقال: الشيطان يمر في لحظة من الشرق إلى الغرب وهو في لعنة الله.... قال أبو يزيد رحمه الله: لو أن رجلاً بسط مصلاه على الماء، وترجع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا

1 - المرجع نفسه، 95-150.

2 - ابن منظور، لسان العرب، 76/12.

3 - المصدر نفسه، 77/12.

4 - الجرجاني، الشريف، التعريفات، 193.

5 - الكلاباذي، أبو بكر، التعرف لمذهب أهل التصوف، ط 2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1994م. 44 (باب قولهم في كرامات الأولياء).

6 - الطوسي، أبو نصر، اللمع، تح: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، 1960م. 393-394-395 (باب في الأدلة على إثبات الكرامات للأولياء).

7 - الكلاباذي، أبو بكر، التعرف لمذهب أهل التصوف، 44-45-46.

8 - القشيري، عبد الكريم، الرسالة القشيرية، تح: معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي، دار الخير، دمشق-بيروت، 1988م. 353.

9 - القاشاني، كمال الدين، اصطلاحات الصوفية، ضبطه: موفق الجبر، ط 1، دار الحكمة، دمشق، سوريا، 1995م. 113.

10 - سورة يونس، 62-63-64.

11 - البخاري، صحيح البخاري، ط 1، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، 2002م. كتاب الرقاق، باب التواضع، 1617.

كيف تجدونه في الأمر والنهي)<sup>1</sup>، ومن هنا كان التفريق بين الكرامة والخوارق الشيطانية التي تجري على يد بعض البشر بغية التحدي واستعراض القدرات، وتكون لهم بالرياضات والتعلم ودعاء الجن.

### عجائبية النص الكرامي

أثار حضور الخوارق في النص الكرامي اهتمام النقاد مما دفعهم إلى دراسته بعدة نصوصاً عجائبياً<sup>2</sup>، لكننا سنتوقف هنا عند دراسة واحدة هي "عجائبية النثر الحكائي" للباحث لؤي خليل لأهميتها؛ إذ حاول فيها التطوير لعجائبية النص الكرامي التي تتمثل عناصر العجائبي كما حددها "تودوروف"، وتضيف إليها، ثم أتبع تطهيره بدراسة تطبيقية على نصوص المعارج والمناقب، موضحاً أن نقطة الاختلاف الرئيسية سببها طبيعة النص الكرامي؛ فنصوص "تودوروف" كلها أدبية، لا وجود حقيقياً لها خارج إطار النص، في حين يرقى النص الكرامي إلى مرتبة القداسة في الثقافة الإسلامية، وتمتد حقيقته إلى خارجه حتى تلامس الواقعي والتاريخي والمقدس، وهو ما يجعلها تقع على حافة الأدب والتاريخ والمقدس<sup>3</sup>. ويمكننا تحديد نقاط التلاقي والاختلاف والإضافة في عناصر العجائبي وموضوعاته ووظائفه في النص الكرامي وفق الآتي:

أولاً: اشتراط "تودوروف" اعتبار عالم الشخصيات في النص العجائبي عالم أشخاص أحياء، وبعد النص الكرامي من أكثر النصوص تحقيقاً لهذا الشرط؛ لأن شخوصه لها مرجعيتها الواقعية والتاريخية خارج إطار النص، لكنه أخرج الحلم من دائرة العجائبي لأن الحدث فيه ليس واقعياً، ولا يخرق نظام المؤلف، ولا يؤدي إلى التردد والحيرة. وهنا نقطة الاختلاف الأولى؛ فللحلم مكانة رفيعة في النص الكرامي لأن أحلام الولي رؤيا، وللرؤيا صفة القداسة لارتباطها بالنبوة، وقد أندر الرسول من كذب فيها بالعقاب، ولذا فهي في النص الكرامي مصدر من مصادر الحقيقة، وطريقة من طرائق المعرفة<sup>3</sup>.

ثانياً: من عناصر العجائبي تجاوز المؤلف واللامؤلف، والواقعي والمتخيل، أو اللاواقعي، تجاوراً صادمًا مؤثراً، وهذا العنصر وافر الحضور في النص الكرامي، وبعد خصيصاً مائزة له لقدرته على جمع المتناقضات<sup>4</sup>، وهو ما سماه الناقد محمد مفتاح تحطيم مبدأ الثالث المرفوع، أو الوسط المرفوع المنطقي<sup>5</sup>، ويعني به أن اجتماع الإلهي والبشري والخيال والواقع في النص الكرامي يلغي التصنيف القائل بوجود متميزين، لا ثالث لهما، ويؤكد وجود مساحة ثالثة

1 - الطوسي، الملح، 400. / وينظر أيضاً حديث الكلاباذي عن جواز إظهارها على الكذابين، التعرف لمذهب أهل التصوف، 46. \* أشار د. أيمن تعيلب في تقديمه لكتاب "أدبيات الكرامة" إلى بروز العجائبي في النص الكرامي قائلاً: (ومن هنا يكون منطق الكرامات منطق عجائبي غرابي وظيفته الخروج عن المنطق باستمرار، ولكن بمنطق آخر هو التخيل المنذهل الذي يتجاوز الممكن ليخترق المستحيل، وهو التلاعب خارج النسق لتوسيع حدود العقل والتعقل لإعادة تأسيس عقل أكثر حرية وإنسانية وأصاله)، بدران، محمد أبو الفضل، أدبيات الكرامة الصوفية، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، 2013م. 17.

2 - خليل، لؤي، عجائبية النثر الحكائي، 35-172.

3 - المرجع نفسه، 35-36-37-39.

4 - خليل، لؤي، عجائبية النثر الحكائي، 44.

5 - مفتاح، محمد، مجهول البيان، ط 1، 1990، دار توبقال، 120. يقصد الناقد "مفتاح" بالمبدأ الثالث المرفوع، أو بالوسط المرفوع المنطقي انتفاء وجود مبدأ ثالث أو حد ثالث بين حدين متضادين، وهو انتفاء منطقي، فالإلهي مثلاً حدّ مقابل للبشري، ولا يوجد حدّ وسط ثالث بين البشري والإلهي. والخيالي حدّ مقابل للواقعي، ولا يوجد حدّ ثالث وسط بينها، وهذا الحدّ الثالث نُفي أو رُفِعَ منطقياً لاستحالة وجوده. لكن الكرامة خرقت هذه القاعدة وكسرت مبدأ الثالث المرفوع، وجمعت المتناقضات بخلقها عالماً وسطاً بين البشري والإلهي، وبين الواقعي والخيالي.



تجمعهما هي مساحة الكرامة<sup>1</sup>. واجتماع ما لا يمكن اجتماعه في الكرامة يخلق توتراً يغدو (مصدر استغراب ودهشة لأنه يوحى بخرق بعض القوانين الطبيعية والسلوك الاجتماعي المتعارف عليه، ويوحى بالتناقض، وما هو بالتناقض)<sup>2</sup>. لكن اختلاف طبيعة النص الكرامي عن النصوص الأدبية التي درسها "تودوروف" يحتم الحديث عن مفهوم ثالث غير الواقعي والمتخيل، وهو مفهوم الحقيقة، وهذا المفهوم في الثقافة الإسلامية ليس مطابقاً بالضرورة للواقع، بل إنه أكثر اتساعاً؛ (فمبدأ الاعتراف بالكرامات مثل المشي على الماء أو الطيران في الهواء يعني القول بقبول خرق العوائد على أنه جزء من الحقيقة، وإن كان لا يجري على سنن المؤلف، مما يعني أن الكرامة حقيقة، وإن خالفت نظام الواقع)<sup>3</sup>، وهذا يعني وجوب الحديث عن تجاوز الحقيقي مع اللاحقيقي، بدلاً من الحديث عن تجاوز الواقعي والمتخيل، أو الواقعي واللاواقعي. لكن دخول مفهوم الحقيقة بديلاً من مفهوم الواقع أثار إشكالية أساسية، وهي أن الحقيقة محكومة بمرجعين، هما: النص، وموقعه في الثقافة الإسلامية، وبمرجعين آخرين، هما: صاحب النص والمتلقي؛ فإذا حاز صاحب النص رتبة الولاية صار مصدرًا من مصادر الحقيقة، وهنا تبدأ مرجعية المتلقي؛ فإذا آمن بولاية صاحب الكرامة دخل نصه في دائرة الحقيقة، وإذا أنكر ولايته رفض روايته جملة وتفصيلاً، وعليه فإن المعيار في دراسة العجائبي في النص الكرامي ليس ثابتاً؛ فإذا كان النص كرامة كان المعيار الذي تقاس عليه الوقائع هو القدرة الإلهية التي تخرق المؤلف، وإذا لم يكن كرامة فالمعيار قوانين الواقع، لأن الحقيقة هنا هي ما وافق قوانين الواقع فقط<sup>4</sup>.

ثالثاً: يمثل التردد شرطاً رئيساً من شروط العجائبي، لكثته في النص الكرامي مختلف بسبب اختلاف طبيعة النص؛ فالتردد هنا ليس ناتجاً من بنية النص الداخلية، كحاله في النصوص الأدبية العجائبية التي درسها "تودوروف"، وإنما هو ناتج من موقف المتلقي القبلي من الكرامة؛ فالموقف العام في الثقافة الإسلامية يقول بإمكانية قبولها كهبة من الله، وبإمكانية رفضها باعتبارها غير حقيقية، وهو ما يوّد حالة التردد عند المتلقي، ويوسع زمن التردد، وينقله من التلاشي إلى الوجود، لأن رفض كرامة من ثبتت ولايته غير جائز عند المسلم؛ ولذا يخشى ترجيح الإنكار، وغير جائز قبول كرامة من لم تثبت ولايته، فينتهي التوتر بتجريح الاحتمالين معاً<sup>5</sup>.

رابعاً: نظم "تودوروف" موضوعات العجائبي في شكتين رئيسيتين، أولاهما: شبكة موضوعات الأنا، وفيها يحاول الإنسان معرفة العالم الخارجي وعلاقته به، وهذه الموضوعات حاضرة في النص الكرامي. وثانيتها: شبكة موضوعات "الأنت"، وفيها يحاول الإنسان معرفة نفسه، واختراق عوالم اللاشعور. وهذه الشبكة غائبة غياباً تاماً عن النص الكرامي، وهذا لا يخالف نظرية "تودوروف" لأنه لم يشترط توافر الشكتين معاً في النص العجائبي<sup>6</sup>.

خامساً: حصر "تودوروف" وظائف العجائبي في اثنتين: تتبع الأولى من خارج النص، وهي الوظيفة الاجتماعية، لأن العجائبي ذريعة للحكي عن الممنوع في العرف الاجتماعي، ووصف ما لم يكن وصفه ممكناً. والثانية ترتبط بالنص، وتتجلى في قدرة العجائبي على خلق أثر خاص في المتلقي، كالخوف أو الهلع، أو حب الاستطلاع، يستفزه ليعيد القراءة مما يؤدي إلى تعدد الرؤى، وتحول النص إلى نص مفتوح، فضلاً عن خلق الطاقة الجمالية للعجائبي، وتظهر في قدرته على إثارة هزة المفاجأة من التقاء المتناقضين، وقدرته أيضاً على خدمة السرد والاحتفاظ

1 - خليل، لؤي، عجائبية النثر الحكائي، 132-133.

2 - مفتاح، محمد، مجهول البيان، 121.

3 - خليل، لؤي، عجائبية النثر الحكائي، 45.

4 - المرجع نفسه، 46-55-56-58.

5 - المرجع نفسه، 60-63-64.

6 - ينظر: خليل، لؤي، عجائبية النثر الحكائي، 66-70-71-73-74-75-76.

بالتوتر، لأن النص يبدأ بالمألوف المعبر عن التوازن ليبرز العجائبي فيخلخل التوازن، ويمنح المحكي فرصة للوجود. وقد أضاف النقاد وظيفة ثالثة للعجائبي، هي تحطيم ثبات الحقيقة بوصف العجائبي بؤرة لالتقاء المتناقضين: الواقعي واللاواقعي. أما في النص الكرامي فنظهر وظائف إضافية، كالوظيفة "النوعية" التي ذكرها د. لؤي خليل عند حديثه عن نصوص المعراج، ويعني بها تثبيت موقع النص داخل النوع الذي ينتمي إليه، أي إثبات انتماء نصوص المعراج إلى الكرامة. والوظيفة "المعرفية" باعتبار أن الكرامة طريقة لتقديم المعرفة، أو سبيل للوصول إليها، وهي معرفة يقينية مصدرها إلهي. وليس هدف العجائبي في النص الكرامي خلخلة الحقيقة، وإنما تقديم صورة كاملة عن الحقيقة الكونية، وكشف المغيب منها، وهو عالم الغيب الذي له قوانين مغايرة لقوانين الواقع، وتأكيد وجود إله يقدر على خرق تلك القوانين، مما يعني عدم الركون إلى قوانين الواقع والطبيعة؛ ولذا فإن المحكي يتأسس على معرفة المتلقي بهذين التوازنين، ويختلف يكسر العجائبي ظاهر الشرع ومألوف الطبيعة؛ ولذا فإن المحكي يتأسس على معرفة المتلقي بهذين التوازنين، ويختلف العجائبي في النص الكرامي عنه في نصوص "تودوروف" في أن التوازن النهائي غير موجود لأنه ينتهي بقبول الخلل الذي أحدثه حضور العجائبي على أنه ظرف استثنائي يحدث لبعض البشر.

وبعد وقفنا التفصيلي على رؤية د. لؤي خليل في عجائبية النص الكرامي نقول إننا نوافق الرأي في معظم ما جاء به، ونخالفه في نقطتين رئيسيتين، أولاهما: حديثه عن مفهوم "الحقيقة" الذي تنتمي إليه الكرامة، وضرورة الحديث عن تجاوز الحقيقي واللاحقيقي في الكرامة، بدلاً من الحديث عن الواقعي والمتخيّل؛ فإذا كان العجائبي في النص الكرامي قد جاء ليكشف النصف الثاني المغيب من الحقيقة الكونية، والمتعلق بعالم الغيب، والمرتبط بالقدرة الإلهية، فإن الشق الأول من النص الكرامي لا ينتمي إلى اللاحقيقة، وإنما ينتمي إلى الشق الأول من الحقيقة، المرتبط بالمألوف من عالم الشهادة، وهذا يعني أن التجاور في النص الكرامي يكون بين شقي الحقيقة: الواقعي المألوف المنتمي إلى عالم الشهادة، والغيبّي اللامألوف المنتمي إلى عالم الغيب، وهما عالمان متكاملان، غير متعارضين، ولكلّ منهما قوانينه الناظمة، وإنما يأتي التوتر من خرق العجائبي في الكرامة لقوانين عالم الشهادة المعلومة المألوفة، وهذا يعيدنا مجدداً إلى رأي "تودوروف"، وإلى الحديث عن تجاور المألوف واللامألوف. أما النقطة الثانية فهي حديثه عن تغيير معيار الحكم على النص الكرامي بحسب موقف المتلقي القبلي من الكرامة؛ فإذا عدّ المتلقي النص كرامة فالمعيار هو القدرة الإلهية، وإذا لم يره كذلك فالمعيار هو الواقع، ونتيجته رفض الرواية كلها. صحيح أن المعيار يتغير في الحكم على العجائبي في النص الكرامي، لكن العجائبي هو لحظة التردد والقلق، فإذا حكم المتلقي بأن النص ليس كرامة فهذا يعني أنه مجرد نص أدبي، وأن المروي دخل في باب العجيب لأنه خرق نظام الطبيعة المألوف، أما إذا حكم بأنه كرامة تتجلى فيها القدرة الإلهية فإن العجائبي يخرج أيضاً إلى العجيب، ولكن العجيب القدسي.

ما أوردناه، هنا، من مهاده نظري حول العجائبي وعجائبية النص الكرامي سنحاول رصد تجلياته من خلال تحليلنا لنصوص الرحلات الكرامية في كتاب "التشوّف إلى رجال التصوف، وأخبار أبي العباس السبتي"، لـ "ابن الزيات التادلي".

### التعريف بكتاب "التشوّف" ومؤلفه "ابن الزيات التادلي"

"ابن الزيات التادلي" هو يوسف بن يحيى، شيخ، فقيه، قاض، أديب، نشأ في المغرب، وتلقى علومه على يد كبار علمائه، وصحب المتصوف الكبير أبا العباس السبتي، وكان متصوفاً معتدلاً على نهج الإمام الغزالي، ولذا كان يحيل كل من يرغب في معرفة التصوف على كتابه "إحياء علوم الدين"، ودليل ذلك خلو كتاب "التشوّف" من أية

<sup>1</sup> - ينظر: المرجع نفسه، 85-87-89-90-91-94-95-97-104-106-107.

شطات، وعدم اعتزاله، واشتغاله بالقضاء حتى وفاته برقراقه عام سبعة أو ثمانية وعشرين وستمئة للهجرة. غاب ذكره عن موسوعات الأندلسيين لأنه لم يزر الأندلس، وله غير كتاب "التشوف" كتاب "صلحاء المغرب"، وشرح لمقامات الحريري، سماه "نهاية المقامات في دراية المقامات"<sup>1</sup>.

ألف "التادلي" كتاب التشوف عام 617 هـ، وكان تأليفه متزامناً مع هزيمة "العقاب" التي آذنت بسقوط دولة الموحدين وانهيار قوتها أمام الإسبان في عهد الخليفة محمد الفاتح الموحدي، وقد جمع فيه مئتين وتسعاً وسبعين ترجمة من الرجال والنساء، بينهم تسعة عشر من المجاهيل، ولا مصادر له إلا الرواية، وقد أخذ "التادلي" أخباره عن خمسين من الرواة، معظمهم من إخوانه وأصحاب الشيوخ الذين ترجم لهم أو ذويهم، وكان لكتابه أهمية كبيرة، فقد تداوله المؤلفون، وألّفوا على منواله، ومنهم "ابن قنفذ القسنطيني" في كتابه "أنس الفقير وعزّ الحقير"، و"عبد الحق البادسي" في كتابه "المقصد الشريف والمنزح اللطيف في التعريف بصلحاء الريف"<sup>2</sup>.

بدأ "التادلي" كتابه بمقدمة ذكر فيها سبب تأليفه لكتابه، وهو التعريف بصلحاء مراكش الذين حازوا صفة الولاية، وحشد فيها البراهين التي تثبت وجودهم مرتبةً من أرفعها قدسيةً إلى أدناها، فذكر أولاً حديث الرسول: (لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)<sup>3</sup>، وأتبعه بتفسير الطرطوشي له بأنه أراد به أهل المغرب لصلاحهم، وختم بذكر حلم لمتصوف رأى فيه الرسول على باب مراكش، وذكر له أن صلحاءها سبعة، وقد رفع "التادلي" رؤيا المتصوف إلى مرتبة الدليل القدسي<sup>4</sup>، ثم عرّف المتصوف بأنه (المنقطع بهمته إلى الله تعالى، المتصرف في طاعته)<sup>5</sup>، وهذا يعني أن الولاية ليست شرطاً لازماً لديه للكرامة التي زحرت بها تراجم الكتاب، وعلل ذكره لأخبار المجهولين والمجهولات بأن الغاية من ذكر عجائب أخبارهم تقوية قلوب السالكين<sup>6</sup>؛ وإنّ فإن مجهولية الفاعلين الذين رفعهم إلى رتبة الولاية لا تطعن في موثوقية أفعالهم، وإن كانت أعاجيب، لأن المهم فيها هو الوظيفة الدينية متضمنة التعليمية والمعرفية، وهي تقوية قلوب السالكين. ولأنه كان يدرك مدى غرابة ما سيحشده من كرامات حافلة بالفعل الخوارقي فقد مهّد للتراجم بسبعة أبواب، وصفها بأنها "لازمة"، وقد مارس فيها أسلوب الحجر<sup>7</sup>، محاولاً حماية نصه من الشك، وخلق مسافة أمان بينه وبين المتلقي، وتهيئة المتلقي لقبول التراجم بكل ما فيها من كرامات عجابية، ودفعه إلى التسليم من خلال الترهيب والترغيب، وتعطيل الشك الذي قد ينتابه حين سماعها. ويكفي أن نذكر عنوانات هذه الأبواب لنذكر ما قام به "التادلي" لحماية نصه، وهي: الباب الأول: في صفة الأولياء، الباب الثاني: في حفظ قلوبهم، الباب الثالث: في محبتهم، الباب الرابع: في زيارتهم ومجالستهم، الباب الخامس: في حسن الثناء عليهم ووضع القبول لهم في

<sup>1</sup> - التادلي، ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، ط 1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية، 1404 هـ-1984 م. 7-8-23-24.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، مقدمة المحقق، 7-13-14-15-17-18.

<sup>3</sup> - مسلم، أبو الحسين، صحيح مسلم، ط 1، دار طيبة، الرياض، السعودية، 2006 م. كتاب الإمارة، 926. /التادلي، ابن الزيات، التشوف، 31.

<sup>4</sup> - التادلي، ابن الزيات، التشوف، 31-32-33.

<sup>5</sup> - المصدر نفسه، 34.

<sup>6</sup> - المصدر نفسه، 38.

<sup>7</sup> - ذكر د. لوي خليل أن ابن عربي مارس "الحجر" حين ناشد المتلقي في مقدمة رسالته "شق الجيب" أن يتريث في الحكم عليها، وأن لا يبت فيها برأيه إن استنكر شيئاً، موضحاً أن أسلوب الحجر يكفل الأمان للتصوص، لكنه لا يعني تجاهل الأعراف التي قد تكون أكبر من مسافة الأمان مما يؤدي إلى إلغاء وظيفة العجائبي الاجتماعية. عجائبية النثر الحكائي، 86.

الأرض، الباب السادس: في إثبات أحوالهم، الباب السابع: في إثبات كراماتهم. وأعمق هذه الأبواب أثراً في المتلقي: الأول، والثاني، والسابع.

حاول "التادلي" في الباب الأول نزع الشك من عقل المتلقي، وقمع تساؤلاته، ودفعه إلى التسليم بموثوقية ما سيقراً قبل قراءته، والإيمان بأن ما سيرد في التراجم من أخبار وأحداث عجائبية ما هو إلا هبة إلهية خصّ بها الله عباده المخلصين، وذلك من خلال سوقه دليلاً قدسياً لا يقبل الشك والمخالفة والرفض من قبل المسلم، وهو خمسة أحاديث تتضمن صفات الأولياء، وهي صفات غير تعجيزية، لا تقتزن بالعبادة، وإنما تتمحور حول ضروب من السلوك الأخلاقي، وتطبق بدقة على من ترجم لهم "التادلي"، فإيمان المتلقي القبلي بهذا التخصيص يقتل حيرته وقلقه، ويدفعه إلى الحكم المسبق بأن ما سيرؤوه عجيب تحكمه قدرة الإله، فأية غرابة في أن يمشي ولي على الماء، أو يطير في الهواء، إذا كان الرسول (ص) قد وصف الأبدال، وحدّد وظيفتهم القدسية، فقال: (كلما مات منهم واحد أبدل الله مكانه من المؤمنين واحداً، بهم يحيي الله الموتى، وبهم يصرف الآفات عن الأرض، وبهم يميت الأحياء، وبهم يسوق الماء إلى الأرض الجزر، قالوا: يا رسول الله فيما نالوا ذلك، أبالصوم والصلاة؟ قال: والذي نفسي بيده، ما نالوها بصوم ولا صلاة، ولكن نالوها بسخاء الأنفس، وصدق الحديث، وسلامة الصدور، وسلامة الصدور، وسلامة الصدور) <sup>1</sup>. وتابع "التادلي" في الباب الثاني أسلوب الحجر على المتلقي محاولاً ترهيبه وإخافته من إنكار عجائب الكرامات وتكذيبها، مثبتاً أن الإنكار نتاج الجهل، ودليله قصة النبي موسى مع الخضر. أما إغضاب الولي أو معاداته فعقوبتهما غضب من الله وإيدان بحربه <sup>2</sup>، ودليل العقاب القدسي حديث الرسول (ص): (فقال يا أبا بكر، لعلك أغضبتمهم، لئن كنت أغضبتمهم لقد أغضبت ربك) <sup>3</sup>، وقوله: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب) <sup>4</sup>، فهذا الردع القدسي اليقيني القبلي يجمع عقل المتلقي المسلم، ويوهن حضور العجائبي؛ لأن الدهشة الأولى تتأتى من قدرة الإله، لا من فعل الخرق البشري لمألوف الشرع والطبيعة، وهو بذلك يعطل الوظيفة الاجتماعية للعجائبي، ويخلق في نفس المتلقي المؤمن بالكرامة توازناً بعدياً يتأسس على يقينه بأن الحدث العجائبي يبدو في ظاهره خرقاً لقوانين الطبيعة والقدرة البشرية، لكنه في جوهره كشف للمغيب من الحقيقة الكونية، وتجلّ لقدرة الإله.

أما الباب السابع فهو أهم الأبواب السبعة اللازمة؛ لأنه خصّصه للكرامة. ولإدراكه أهمية الكرامة وخطورتها، بوصفها الجزئية الوحيدة التي قد تدفع المتلقي للشك فيما أورده، فقد حشد في هذا الباب آراء عدد من العلماء الذين أثبتوا الكرامة، ثم أتبع هذا الباب بأربعة وعشرين فصلاً توضيحياً ذكر فيها عدداً كبيراً من الكرامات التي أثرت عن الصحابة والتابعين، وعن الخضر الذي عدّه بعضهم ولياً من الأولياء الصالحين، وأثبت جملة من الأدلة القدسية، من آيات وأحاديث، ليقوي يقين المتلقي بأن تلك الكرامات العجائبية التي سيرؤوها حقيقة لا تقبل شكاً <sup>5</sup>، ولا سيما أنه مهّد للفصول بقوله: (اعلم أن الكرامات إنما هي لأهل اليقين دون غيرهم. وقال أهل اللغة: اليقين زوال الشك) <sup>6</sup>، وأتبعه بدليل بدليل يخرس عقل الشاك ولسانه، فقال: (عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ في أذن مبتلى فأفاق، فقال له رسول الله: ما قرأت في أذنه؟ فقال: قرأت "أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون" حتى ختم السورة. فقال رسول الله: لو أن

<sup>1</sup> - التادلي، ابن الزيات، التشوف، 45.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، 46-47.

<sup>3</sup> - مسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل سلمان وبلال وصهيب، 1169.

<sup>4</sup> - البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، 1617.

<sup>5</sup> - التادلي، ابن الزيات، التشوف، 54 حتى 81.

<sup>6</sup> - المصدر نفسه، 55.

رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال<sup>1</sup>، وإذن، فالشك في الكرامة خلل في الإيمان واليقين، وهذا الحجر الذي مارسه "التادلي" على المتلقي يخلف أثراً شديداً العمق فيه، فيحمي روايته، ويكره المتلقي على التسليم لأن الشك نقص في الإيمان.

### التعريف بالرحلة الكراميّة

تعرف الرحلة الواقعية بأنها فعل انتقال الإنسان في فضاء المكان انتقالاً فعلياً جسدياً، فإذا اقتصر الانتقال على الخيال دون مشاركة الجسد كانت الرحلة خيالية، كرحلات السندباد، أو الرحلة الخيالية التي بنى عليها المعري كتابه "رسالة الغفران"، وإذا اقتصر على الشعور دون الجسد فهي روحية، ولكن إصرار المتصوفين على أن انتقالهم العجائبي في فضاء المكان، الانتقال الذي خرقوا فيه قوانين الزمن والمكان والقدرة البشرية، كان بواسطة الجسد هو ما جعل رحلاتهم كرامة وهبة يخص بها الله أوليائه الصالحين؛ ففي الرحلة الكراميّة يطير المتصوف في الهواء، أو تطوى له الأرض فيحج إلى مكة في أيام قلائل ويرجع إلى أهله في المغرب، أو ينتقل من مكان إلى آخر في طرفة عين، وقد تتم تلك الرحلات مقتصرة على قدرة المتصوف الخارقة، أو تتم بواسطة وسائل عجائبيّة كعبد صالح يحمله من مكان إلى آخر، أو دابة غريبة، أو قوس قزح. ولأن "التادلي" أدرك عجائبيّة هذه الرحلات وخرقها لمألوف الطبيعة والشرع وقوانين الزمن والمكان فقد ساق في الباب السابع الذي خصه للكرامات أدلة قدسية تثبتّها، وتنفي شك المؤمن، فالدليل القدسي على جواز المشي في الهواء، قوله تعالى: (وإذ ننقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة)<sup>2</sup>، وأتبعه بالقياس، فقال: (فكذلك لا يمتنع إمساك غيره من الأجسام في الهواء، ولا فرق)<sup>3</sup>. والدليل القدسي على وجود العباد الطيارين، قول الرسول (ص): (إن لله طيارين من عباده، يغديهم في رحمته، ويحييهم في عافيته، إذا توفاهم توفاهم إلى جنته، أولئك الذين تمرّ عليهم الفتن كقطع الليل المظلم، وهم منها في عافية)<sup>4</sup>. والدليل القدسي على طي الأرض قوله تعالى في قصة آصف بن برخيا صاحب النبي سليمان: (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك)<sup>5</sup>، وخبر جبريل حين قبض الأرض للرسول، وقد كان بتبوك، ليصلي صلاة الجنازة على معاوية بن معاوية الليثي الذي مات حينها بالمدينة<sup>6</sup>.

تتمتع الرحلات الكراميّة بحضور وافر في تراجم كتاب "التشوّف"، ويبدو هذا الحضور طبيعياً إذا أخذنا بعين الاعتبار تفسيرات ظهور الكرامة التي تعدّها تعبيراً عن حاجة نفسية ورغبات دنيوية وتعويضاً عن نقص<sup>7</sup>، وترى ظهورها إفرازاً لمراحل ظلامية، وتعبيراً عن فكر قاعدي جماهيري يعجز عن المواجهة والمعارضة، ويلجأ إلى الكرامة للتعرية والإدانة، فيبرز الفكر الكرامي الذي يحاول خلخلة الواقع المعيش ببناء مجتمع بديل، ويرسم ملامح بطولة جديدة من

1 - المصدر نفسه، 55. سورة "المؤمنون" (115).

2 - سورة الأعراف، 171. / التادلي، ابن الزيات، التشوّف، 62.

3 - التادلي، ابن الزيات، التشوّف، 62.

4 - المصدر نفسه، 62.

5 - سورة النمل، 40. / التادلي، ابن الزيات، التشوّف، 70.

6 - التادلي، ابن الزيات، التشوّف، 70.

7 - زيعور، علي، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، 31-119-123-145. (نذكر أن معظم الكرامات يحدث في حالة غياب الوعي والذات المفكرة، ومنها ما هو فعل باتولوجي، يحدث تحت تأثير الإيحاء والإيحاء الذاتي والمخيلة والإيمان، ووفقاً لذلك فإن الخوارق الكراميّة ما هي إلا تسبيح عمليات لاواعية في الدفاع عن الصوفي؛ فالكرامة تعيد له بطرائق سلبية الاستقرار الذي يفقده من وجهة نفسية، وتحلّ توتره مع الحقل الاجتماعي).

خلال شخص المتصوف، ويفتح آفاقاً على الأمل والانفراج من خلال الكرامة<sup>1</sup>. واللافت أن معظم الرحلات الكرامية الواردة في كتاب "التشوف" ارتبط بالرحلة إلى المشرق للحج أو الصلاة في المساجد المقدسة، وهي حلم عصي صعب التحقق لدى الشخصية المغربية المنفية في أقصى المغرب؛ لأن الرحلة تحتاج مدة عامين، وتتطلب وفرة مالية، وقوة جسدية، وهو ما يعلل، ربما، ظهور الرحلات الكرامية بديلاً للحلم القصي العصي، ولاسيما إذا تذكرنا هنا أن تأليف كتاب "التشوف" كان متزامناً مع الأزمة الكبرى التي عصفت بالمغرب، وهي هزيمة "العقاب"، وحلّ بعدها انهيار اقتصادي وجوع عم البلاد.

وللرحلات الكرامية جذورها في التصوف المشرقي، وربما أشهرها ما نسب إلى رابعة من أنها حجّت متقلبة على أضلاعها مدة سبعة أعوام، حتى وصلت إلى الكعبة<sup>2</sup>، وما روي عنها أنها حجّت فنفق حمارها في الطريق، فدعت ربه فارتدت إليه الحياة، وتابعت رحلتها خلف القافلة<sup>3</sup>، وفي كرامة أخرى أنها حجّت (ولما قربت من الكعبة، رأت روحانية الكعبة قد استقبلتها، فنظرت إليها، وقالت: إني لا أريدك ولا أفرح باستقبالك، أريد استقبال من قال: 'من تقرب إليّ شبراً، تقربت إليه باعاً')<sup>4</sup>، ومثلها ما روي عن البسطامي أنه قال: (كنت طائفاً بالبيت زماناً، فحين عرفت الله تعالى، ووصلت ووصلت إلى قاف القرب وجدت البيت طائفاً بي)<sup>5</sup>. وقد فسر بعض الدارسين كرامات رابعة بأنها تعبير عن مراحل حياتها الروحية وميلها إلى التجريد<sup>6</sup>، ورآها آخرون تعبيراً عن رمزية الحج القائم على سفر من المحيط إلى المركز، ومن المركز إلى المحيط، منسجم مع الإيقاع الداخلي في نبض القلب والإيقاع الكوني، ومثلها حج البسطامي الذي يعبر عن الانتقال من المحيط إلى المركز فيصبح كل ما عداه من السوى، ويطوف كل شيء حوله بما فيهم الكعبة<sup>7</sup>. وإذا أقصينا هذه القراءات، وقرأنا هذه الرحلات من منظور العجائبي وجدناها ترتكز على مكونات عجائبية؛ من حدث وشخصيات وزمن ومكان، وتشتمل على أركان العجائبي، وموضوعاته التي تتوحد فيها الذات مع موضوعها، ويتم العبور من المادي إلى الروحي.

### عناصر تحقق العجائبي في الرحلة الكرامية في كتاب "التشوف"

يتمثل العنصر الأول في أن يدفع النص قارئه إلى التعامل مع الشخصيات في النص بوصفها شخصيات حقيقية، وهو متحقق تحقّقاً تاماً في الرحلات الكرامية في كتاب "التشوف"؛ لأن جميع من قاموا بها كانوا شخصيات حقيقية لها وجودها التاريخي خارج النص وداخله أيضاً، وإذا كان بعض تلك الرحلات قد اقترن بشخصيات مجهولة<sup>8</sup>

<sup>1</sup> - القادري، إبراهيم، الإسلام السري في المغرب العربي، ط 1، سينا للنشر، القاهرة، مصر، 1995م. 135-136-137-138-141-142.

- المحمودي، أحمد، عامة المغرب الأقصى في العصر الموحد، ط 1، دار رؤية، القاهرة، مصر، 1995م. 150-151-156-162-164.

<sup>2</sup> - العطار، فريد الدين، تذكرة الأولياء، تر: محمد الأصيلي الشافعي، تح: محمد الجادر، ط 1، دار الكتبي، دمشق، سوريا، 2009م. 99.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، 97.

<sup>4</sup> - العطار، تذكرة الأولياء، 98.

<sup>5</sup> - المصدر نفسه، 208.

<sup>6</sup> - بدوي، عبد الرحمن، شهيدة العشق الإلهي "رابعة العدوية"، ط 2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1962م. 37-38-39.

<sup>7</sup> - خياطة، نهاد دراسة في التجربة الصوفية، ط 1، دار المعرفة، دمشق، سورية، 1994م. 83-84-100.

<sup>8</sup> - التادلي، ابن الزيات، التشوف، 139-142-143-326-327.

ترجم لها "التادلي" فإن تلك المجهولية لا تشكّل طعناً في الوجود الواقعي لتلك الشخصيات؛ لأنه دعم ترجماته لها برواية أخبارها مستندة إلى رواة حازوا ثقته، فضلاً عن أن تلك المجهولية موظفة ضمن الخطاب الكرامي، لأن التعويل فيه على السلوك والفعل والرتبة لا على الاسم؛ فذاك المجهول قد يكون منصوصاً ذا منزلة رفيعة فتجري على يده خوارق العادات. أما العنصر الثاني، ونعني به تردد المتلقي بين تقديم تفسير طبيعي أو فوق طبيعي للعجائبي الذي يتجاوز فيه اللامألوف مع المألوف فمرتتهن بمرجعية المتلقي المنكئة على موقف قبلي من الكرامة؛ فإذا كان المتلقي مؤمناً بها فإنه سيسلم تسليماً تاماً بكل تلك الرحلات العجائبية الخارقة لمألوف الطبيعة والإنسان، ولن يسعى إلى تقديم أي من التفسيرين لأن الإجابة القطعية حاضرة بأنها هبة، والمتصرف فيها هو القدرة الإلهية، لا القدرة البشرية للمتصوف. وأما إذا كان غير مؤمن بها فإنه سيرفض الرواية، أو يراها عجباً خارقاً لطبيعة البشر، بمعزل عن التفسيرات الرمزية والتأويلية التي يرفضها العجائبي. ولكن قبول المؤمن للكرامة قد يوقعه فريسة التردد أيضاً بسبب مرجعيته التي تتباين فيها آراء العلماء والمتصوفة حول شروط الكرامة، ومدى ارتباطها بالولاية، أو لا. والواضح من خلال تعريف "التادلي" للمتصوف، وإثباته الكرامات لمعظم من ترجم لهم أنه لا يشترط الولاية لحدوث الكرامة، وإذا خالفه المتلقي الرأي بقي متردداً، غير قادر على اتخاذ قرار نهائي بشأنها، ولا سيما أنه استمر في أثناء ترجمته للمتصوفين باستخدام أسلوب "الحجر"، والتأثير في المتلقي، من خلال وصفه أصحاب التراجم بالأولياء والأفراد والطياريين والأبدال مما يزيد من حيرة المتلقي وارتباكته. أما الحديث عن تجاوز المألوف واللامألوف فاللغات في الرحلات الكرامية غياب ذلك التجاور عن معظم النصوص، وهذا معلل بطبيعة الخطاب في كتب التراجم؛ فالترجمة للمتصوف قصيرة، تقتصر على التعريف به وذكر بعض الأخبار والكرامات التي تتغيا إضاءة الجانب الخارق، أو اللامألوف حتماً، ومن هنا تحضر معظم الرحلات الكرامية ضمن سياق خالي من المألوف، فتحدث الصدمة من تجاوز اللامألوف في الرحلة الكرامية مع مألوف الرحلة الواقعية في ذهن المتلقي لا في النص.

وأما العنصر الثالث، الذي عدّه "تودوروف" غير ملزم، ونعني به أن يكون التردد ملموساً عند شخصية من شخصيات النص بحيث يدفع المتلقي، في حال القراءة الساذجة، إلى التماهي معها، فهو حاضر في بعض الرحلات الكرامية بما يتوافق مع الخطاب الكرامي، من خلال موقف المعاصرين للمتصوف صاحب الكرامة، أو موقف شخصية قريبة منه كصديق، أو مريد، أو مروي له ضمنياً. لكن الموقف لا يوصف بالتردد، وإنما يتجلى في أربعة مواقف: إما التسليم، وإما الشك والإنكار، وإما القلق والخوف، وإما الحسرة. أما التسليم فيبدو شديد الوضوح في الرحلات الكرامية المختزلة التي قدمها "التادلي" كخبر أو عبارة قالها المتصوف، وسلم كل من حوله بها على الرغم من أنها مثقلة بحدث خوارقي يقتضي التوقف مطولاً والشك فيه، وأنها خالية من أية تفاصيل توضح زمن الرحلات أو كیفيتها وواسطتها؛ فمن ذلك أنه افتتح ترجمته للمتصوف "أبي زكرياء يحيى بن موسى المليجي" بقوله: (وكان يحج في كل عام، وتواترت عنه عجائب الكرامات)<sup>1</sup>، وقوله في ترجمة "الرجل الأغماتي المجهول": (وذكر لي عنه أنه يحج كل عام)<sup>2</sup>، وقوله في ترجمته للمتصوف "أبي موسى الدكالي" الذي وصفه بأنه من كبار الأولياء: (ثم إذا أتت أيام الحج يقول: أريد أن أزور أهلي، فيغيب أياماً قليلة، ويعود. وأقام على تلك الحالة اثني عشر عاماً، فيقال إنه يحج في كل عام، فلقبه يوماً رجل واصل من الإسكندرية، فسلم على أبي موسى، فتكر له، فقال له الرجل: ألم أرك بالإسكندرية؟ فحجل "أبو موسى"،

1 - التادلي، ابن الزيات، التشوف، 125.

2 - المصدر نفسه، 142.

واجتمع أهل "سلا" بالرجل يسألونه، فقال لهم: إنه يحج كل عام حين يغيب عنكم<sup>1</sup>، ومثله ما ورد في ترجمة "أبي موسى ويعزان الصادي": (لما احتضر أبو موسى نزع قلنسوته عن رأسه، وقال لأهله: احفظوها فإني طفت بها الكعبة أربعاً وعشرين سنة، ما علم بذلك أحد إلى الآن)<sup>2</sup>، وما ورد في ترجمة "أبي علي مالك بن تماجروت الهزميري" الذي وصفه بأنه من كبار المشايخ: (حجبت أربعين حجة، وما فيها حجة يعرفها الناس إلا الحجة التي مشيت فيها على قدمي)<sup>3</sup>. أما الإنكار فمردّه إلى موقف من الكرامة عامّة، وقد ظهر في موقف بعض معاصري المتصوفين الذين ترجم لهم "التادلي"، وكان الرد على الإنكار قمعياً يردع المنكر والمتلقي القلق معاً من خلال تدعيم الرواية بحكم لمتصوفين كبار كقوله في ترجمته لـ "أبي عبد الله الدقاق": (وكان يصرح بأنه وليّ، ويتكلم بأشياء تنكر عليه، فذكر ذلك بعض أصحابه لابن العريف وأبي الحكم بن برجان، فقالوا: لا تتكروا عليه شيئاً من أحواله)<sup>4</sup>، ثم دعم هذا القول بردع قدسي لا يقبل أخذاً ولا رداً؛ ففي الترجمة نفسها رأى المُنكرُ النبيّ في المنام، فسأله أن يريه وليّاً، فأعطاه مفتاحاً ففتح البيوت كلها، ولم ير فيها غير جاره ابن الدقاق. وعقاب المنكر الشاكّ هو إدخاله في الفعل الخوارقي ليكون دليلاً على حقيقته، ثم إقصاؤه، كما فعل "أبو تونارت ولجوط بن ومريل الإيلاني" مع رجل أنكر رحلته اليومية إلى مكة، يقول "التادلي": (حدّثوا عنه أنه كان يصلي العشاء الآخرة بجامع "تاسماطت"، وببيت بمكة، فسمع بذلك من كان ينكر ذلك، فصلّى معه ليلة العشاء الآخرة، وجاء إلى الباب الجوفي الذي عند الصومعة، واتبعه، فالتفت إليه "أبو تونارت"، فقال له: اركب معي أيها الشاكّ. فإذا هو بدابة بيضاء كأنها ناقة باركة عند الباب، فركب، وركب الرجل خلفه، فسارت بهم إلى أن وصل إلى مكة، فحطّتهم، فعاد "أبو تونارت" إلى المغرب، وأقام ذلك الرجل بالمشرق، ولم يرجع إلى أن توفي "أبو تونارت"<sup>5</sup>).

أما القلق الذي ينتاب شاهد الرحلة الكرامية فليس مردّه إلى تردد في الحكم عليها، وإنما مردّه إلى شعوره بالخوف من الرحلة العجائبية التي لم يسبق له أن اختبرها، كما حدث مع أحد الرواة الذين أخذ عنهم "التادلي"، وقد رغّب في أن يرافق متصوفاً مجهولاً في رحلته إلى الحج، وكانت وسيلة الرحلة طائراً أبيض، أو دابة طارت بهما، فلما حلقت عالياً خاف الرفيق، ووصف "التادلي" حاله قائلاً: (فلما مرت برهة من الليل ضعف قلبي ضعفاً شديداً، وكدت أسقط، فقال لي صاحبي: اثبت. فقلت: إني هالك وأخاف السقوط)<sup>6</sup>، فأمر المتصوف الدابة بالهبوط، فهبطت بمصر، وتابع المتصوف رحلته إلى مكة، وفي اليوم التالي عادت الدابة إلى مصر، وحملت الرفيق القلق إلى مكة. وأما الحسرة فهي نتاج اليقين والإيمان التام بالكرامة، وبأنها هبة إلهية. وعلة الحسرة شعور صاحب أو المرید بأنه أدنى مرتبة، وأنه لم يصل بعد إلى المرتبة التي يحوز بها تلك الهبة الخارقة، ومثاله حسرة "أبي زكرياء المليجي" حين زار صاحبه "أبا عبد الله الرجرجي"، وراه ينتقل من مكان إلى آخر راكباً قوس قزح، فقال: (فصاح أبو زكرياء المليجي، وقال: وصل الرجال إلى هذه المنازل، وأنا هكذا!. وخرّ مغشياً عليه، فلما أفاق هام على وجهه، ثم أقبل على الجدّ والكّد إلى أن لحق بالأفراد)<sup>7</sup>، ومثله حسرة تلميذ المتصوف "أبي مهدي وبين السلامة" الذي كان يركب قوس قزح، ويخترق الهواء المسخّر له، ويطيّر

1 - المصدر نفسه، 206.

2 - المصدر نفسه، 391.

3 - المصدر نفسه، 422.

4 - المصدر نفسه، 156.

5 - التادلي، ابن الزيات، التشوف، 164-165.

6 - المصدر نفسه، 143.

7 - المصدر نفسه، 86-87.



هو وأصحابه كالغرائق، فطلب من معلمه أن يسمح له بالطيران، فأمره بأن يترىث لأن الطير إذا طار قبل اكتمال ريشه سقط<sup>1</sup>.

### موضوعات العجائبي في الرحلة الكرامية في كتاب التشوّف

تهيمن شبكة موضوعات "الأنا" على الرحلات الكرامية، ومبدؤها الرئيس إمكانية العبور بين الروح والمادة، وتغيب شبكة موضوعات "الأنت" المتعلقة باللاشعور والانحرافات الجنسية؛ إذ تمثل الكرامة عامّة حالة ارتقاء روحي، يتميز فيها المتصوف عن الآخرين، ويخرق الطبيعة البشرية بامتلاكه قدرات مائزة خارقة، تمكنه من السير في الهواء، والمشي على الماء، وركوب قوس قزح، والطيران، وتسخر له الكائنات الطبيعية المألوفة كالبحر، والرياح، والهواء، والحيوان، والبشر الذين يتحولون إلى عبيد مهمتهم تنفيذ رغبة المتصوف، ومخلوقات أخرى غريبة غير محددة الصفات، تأتمر بأمر المتصوف، ويحكيان لغة خاصة لا يفهمها الآخر<sup>2</sup>. وتشكل هذه التحولات في طبيعة عناصر الطبيعة، وخضوعها للمتصوف، وظهور كائنات فوق طبيعية أهم عناصر شبكة موضوعات الأنا؛ ففي كرامة أبي عبد الله الرجزاجي "يغادر بيته، ويركب قوس قزح الذي يخضع له برمز قدسي، هو: "بسم الله الرحمن الرحيم"، ويمثل امتلاك المتصوف لسرّ الرمز القدسي وطاقته الخارقة ارتقاء روحياً جعل صديق المتصوف "أبا زكرياء المليجي" يختر مغشياً عليه<sup>3</sup>. وفي كرامة أبي زكرياء المليجي "يغادر المليجي السفينة حين رأى أهلها يفعلون فعل قوم لوط، ويأمر البحر بأن يخضع له لأنهما خلق الله، فيستجيب له البحر، فيمشي على الماء حتى يصل إلى بر الإسكندرية، وهذا الحدث العجائبي تحوّل في طبيعة المليجي البشرية، وتحوّل في طبيعة البحر. وفي مكة التقى المليجي بعبد أسود حمله، ومال به مرة وثانية وثالثة، وحطّ به في "وادي شفشاون" مسقط رأس "المليجي" بأقصى المغرب في طرفة عين، في حدث عجائبي يخرق طبيعتي المكان والزمن معاً<sup>4</sup>.

وفي كرامة الرجل المجهول يظهر المخلوق العجائبي غير المحدد الصفات، وبصفه الشاهد بأنه طائر أبيض عظيم، أو دابة عظيمة، ليكون وسيلة للرحلة العجائبيّة، وحضور الوسيلة العجائبيّة سدّ مسدّ السببية الناقصة<sup>5</sup>، ويبيّن احتياج المتصوف إلى وسيلة لاخترق حدّي الزمن والمكان، وتلك الدابة خاضعة للمتصوف بالرمز القدسي، وهو القرآن، وتألّف سيدها، وتتفر من الغريب، فيتلف إليها سيدها المتصوف لتقبل حمل الغريب<sup>6</sup>. وتلك الدابة البيضاء تظهر مجدداً وسيلة لعبور المتصوف "أبي تونارت" وقيامه بالرحلة العجائبيّة إلى مكة كل ليلة<sup>7</sup>. وفي كرامة "أبي مهدي وين السلامة" ينزلق أبو مهدي على قوس قزح، ويعبر الأماكن، ويخترق الهواء، وترفعه السماء كيلا يسقط عليه المطر،

1 - المصدر نفسه، 261-262-263-264.

2 - نشير هنا إلى تفسير علي زيعور للبطولة في الكرامة، إذ قال إن الكرامة (تصورات تخيلية عن بطل يشابه الإله من حيث قدراته الخارقة، ويتحكم في منطق القوانين ويسير الزمان والمكان وفق إرادته المطلقة)، الكرامة والأسطورة، 61.

3 - التادلي، ابن الزيات، التشوّف، 86-87.

4 - المصدر نفسه، 125-126-127-128.

5 - أشار زيعور إلى مبدأ القفز فوق السببية حين تحدّث عن الشبه بين البطل الكرامي والبطل في القصص الديني، فقال إن البطل في كليهما (خارق بقدراته وسلوكه، يهدف للهدية، وينتصر على كل المعوقات، كما أن القفز فوق السببية خاص بما هو ديني)، الكرامة والأسطورة، 31.

6 - التادلي، ابن الزيات، التشوّف، 142-143.

7 - المصدر نفسه، 164-165.

ويطير هو وأصحابه كالغرائق من مكان إلى آخر في طرفة عين<sup>1</sup>، وفي كرامة "أبي صالح واطيل الهسكوري" يمتطي المتصوف الهواء المسخر له، ويطلب من راغب في مشاركته رحلته أن يضع رجله حيث يضع هو رجله ليطيروا إلى مكة، فيصيب الراغب خوف شديد خشية أن تزلّ قدمه<sup>2</sup>. ففي كل تلك الرحلات الكرامية تحضر الكائنات العجائبية لتكون وسيلة لعبور الذات الصوفية إلى منازل أعلى، ولتخرق قوانين الطبيعة كلها، بوصفها قوانين للعامة لا للخاصة المخلصين، فيفارق الزمن والمكان مألوف طبيعتهما، ويغيب الموضوع تماماً في حضرة ذات المتصوف التي يبلغ ارتفاعها درجات عليا تجعلها مسيطرة على العالم الخارجي، مخضعةً عناصره لطاقتها الروحية، وقد تحتاج في درجة أدنى إلى وسائل للعبور والإخضاع كالكائنات العجائبية، من دابة وقوس قزح وعبد خاضع لها. وفي ترجمة المتصوف "أبي عبد العزيز الركوني" يروي لنا "التادلي" رحلته الكرامية قائلاً: (أول ما ظهر لي من بركة أبي عبد العزيز في ابتداء أمري أنني صليت معه المغرب والعشاء الآخرة، فخلوت بنفسي، وشرعت في صلاة وردية، فصليت ركعتين فأتاني آت، وقال لي: يا "وين السلامة"، اتبعني. فلم أدر أجنبي هو أم أنسي، فاتبعته وأنا أمشي خلفه إلى أن قال لي: هذه أغمات وريكة. ثم كلما مررت ببلد سمّاه لي، فكأنني كنت في المنام، إلى أن قال لي: هذه الكعبة المشرفة. فشاهدتها على الصفة التي يصفها الناس، ورأيت الناس يطوفون بها، ولمست الحجر الأسود بيدي، وشربت من ماء زمزم. ثم قال لي ذلك الآتي الذي أتاني: ارجع بنا. فتحول وتبعته، ولا أدري حيث يسير، إلى أن أوصلني المكان الذي كنت أصلي فيه وردية، فسمعت نداء الصباح، فذهبت إلى "أبي عبد العزيز"، وصليت معه الصباح، فلما صلينا قال لي: رأيت الكعبة يا "وين السلامة"، تحفظ من الشيطان لا يغرنك<sup>3</sup>. في هذه الرحلة الكرامية يحضر الحلم عنصراً رئيساً، وللحلم كما سبق أن ذكرنا مكانته في الثقافة الإسلامية لأنه يدخل في باب الرؤيا، وللرؤيا قداستها لارتباطها بالنبوة، فهي وسيلة كشف ومعرفة وارتقاء، ويتداخل حالا الصحو والنوم، ويفارق المتصوف طبيعته البشرية، ويتحول إلى "آب" غير محدد الماهية، ويلتبس حاله على صاحبه، فيقول: (لم أدر أجنبي هو أم أنسي)، ويحمل صاحبه "وين السلامة" في رحلة عجائبية إلى مكة، يتكثف فيها الزمن وتمحي أبعاد المكان. وتتفرد هذه الرحلة بتحول الطبيعة الجسدية للمتصوف إلى طبيعة غير محددة الماهية، وهيمنة الذات على عالم الحلم إضافة إلى العناصر الأخرى.

### وظائف العجائبي في الرحلة الكرامية في كتاب "التشوف"

تبرز في الرحلات الكرامية أربع وظائف للعجائبي، الأولى والثانية هما الوظيفتان الرئيستان للعجائبي كما حددهما "تودوروف"؛ أي الوظيفة الاجتماعية والوظيفة الأدبية، والثالثة والرابعة وظيفتان خاصتان بالكرامة بوصفها نصاً عجائبياً، وهما: الوظيفة المعرفية، والوظيفة التعليمية.

**الوظيفة الاجتماعية:** تتجلى من خلال خرق الرحلات الكرامية للمألوف الاجتماعي، وهو ما يدفع لإنكارها، ويثير الفضول والدهشة والرغبة في الاختبار والتجربة، وهي تقدم صورة لبطل عجائبي جديد يحطم مألوف الطبيعة والمجتمع والشرع، ويعرّي عجز المجتمع، ويقدم حلاً عجائبياً بديلاً بقره قوانين الواقع والمكان والزمن، لكن هذه الوظيفة خاضعة لحكم المتلقي؛ فإيمانه بأن ما قرأه كرامة خاضعة للقدرة الإلهية، وتمثل استثناء خصّ به الله بعض البشر يوهن الوظيفة، لأن الخرق مرتبط ببطل ديني يقفز فوق قانون السببية بقدرة إلهية لا بشرية، ليقدم حلاً فوق بشرية لأزمات واقعية.

<sup>1</sup> - المصدر نفسه، 261-262-263-264.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، 364.

<sup>3</sup> - التادلي، ابن الزيات، التشوف، 261.

**الوظيفة الأدبية:** يحافظ العجائبي من خلالها على التوتر، لأن السرد يستخدمه لإطالة أمده، فيتحول إلى نص مفتوح يقتضي تعدد القراءة والرؤى، فضلاً عن المتعة الجمالية التي يحققها العجائبي من خلال أثره الفاعل في المتلقي من خوف، أو قلق، أو دهشة، أو رغبة في الاستطلاع. وهذه الوظيفة تظهر بوضوح في الرحلات الكرامية، سواء أكان المتلقي موقناً بالكرامة أم رافضاً لها؛ ففي الحالة الأولى يخلف حضور العجائبي في المتلقي متعة روحية تدفعه إلى إعادة القراءة، وفي الحالة الثانية يخلف متعة جمالية تدفعه إلى إعادة قراءة الرحلة بوصفها نصاً أدبياً عجائبياً ثرياً بالصدمة المدهشة.

لا شك في أن الرحلات العجائبية المكثفة في الأخبار أو الأقوال المقتضبة للمتصوفين تفتقد هذه الوظيفة وأثرها بسبب طبيعة التراجم القصيرة، لكن هذه الوظيفة تبدو واضحة المعالم، ثرية في الرحلات التفصيلية، كما هي الحال في ترجمة المتصوف "أبي زكرياء المليجي"؛ فهي سلسلة متعاقبة الحلقات من رحلات كرامية يبرز العجائبي في كل منها عاملاً مثيراً للتوتر، يدفع بعناصر السرد إلى أقصى الأزمات ليأتي المدد، أو الحل. أما الحلقة الأولى فهي الرحلة البحرية التي تبدأ رحلة واقعية طبيعية لا غرابة فيها حتى يشاهد "أبو زكرياء المليجي" أهل السفينة يفعلون فعل قوم لوط، فتبدأ الرحلة العجائبية البحرية، وترتفع حدة التوتر السرد حتى وصول "المليجي" إلى الإسكندرية، ويصفها "التادلي" قائلاً: (فشمّر أثوابه، وحمل متاعه، وابتدر الدخول في البحر، فقال صاحب السفينة: أجنّ هذا أم حمق؟ فقال له: كل ذلك حق موجود. فدخل الماء إلى أن بلغ إبطيه، وقال: أيها البحر، أنت خلق الله، وأنا خلق الله! ثم دعا الله تعالى، فقال في دعائه: اللهم إنك تعلم أنني فررت من مشاهدة معصيتك، فأعنتي وكن معي حيث أكون. فأحس تحت قدميه مثل الأحاريس التي تكون بجانب البحر وبشاطئه، فارتفع وقد وصل الماء إلى كعبه، أو نحو ذلك، فافتتح قراءة القرآن، وهو يمشي على ذلك الذي أحس تحت قدميه إلى أن تألمت قدماه من الحفاء، فخرج إلى الساحل وقد أجده الجوع والعطش فأبصر جثة كالإبل، فأمّا فلما وصل إليها وجدها صخرة، فحفر عندها، فنبع من تحتها ماء عذب فشرّب وتوضأ، وصلى ركعتين)<sup>1</sup>. أما الحلقة الثانية من رحلته فبدأت واقعية منسجمة مع توازن قوانين الطبيعة والقدرة البشرية ومألوفها، وبدا فيها السرد هادئاً حتى بروز الحدث العجائبي الذي أحدث خللاً في التوازن الأولي، وأعاد التوتر مجدداً إلى السرد، وأثره بحدث خارق تمثل في لقاء أبي زكرياء برجلين صالحين أطعماه طعاماً مباركاً، فدعا الله أن يهبه مثله ليطعمهما فالتفت فراه إلى جانبه فأطعمهما فعرفاه، وأعطياه إشارة يتعرّف بها إلى العبد الأسود الذي سيحمله إلى بلده المغرب، لتكون تلك الإشارة مفتاحاً لحلقة رحلية عجائبية تالئة تمثلت في عودته من مكة إلى بلده "وادي شفشاون"، ولتخلف عودته العجائبية حيرة لا تنتهي بانتهاء السرد بل تبقى عالقة تتنازعها احتمالات شتى، بين إنكار وتكذيب، وإيمان ويقين، وإرجاء قلق. وفي وصف الرحلة يقول: (فقال له من أي البلاد أنت؟ فقال: من بلد رجرجة، فقال له: من أي بلد منه؟ فقال له: من وادي شفشاون. فجعل يكرر شفشاون، ثم قام وتحزّم وشدّ على نفسه ثيابه فأخذ بعضديه، ورفع من الأرض. فمال به ذات اليمين فوضعه، ثم رفعه فمال به ذات الشمال، فوضعه، ثم رفعه فمال به ذات اليمين فوضعه، وتركه، وغاب عنه، فانتظره أن يرجع إلى أن قرب طلوع الفجر، فنظر فرأى سواداً كسواد الوادي ذي الشجر، فقص ذلك السواد فإذا هو بالوادي)<sup>2</sup>.

**الوظيفة التعليمية:** يرى بعض أهل التصوف أن من الفروق الرئيسية بين المعجزة والكرامة وجوب الجهر في الأولى، ولزوم الستر في الثانية، ويحذرون من إعلانها خشية غلبة القلق والانخداع بالخيال، وثمة من دعا لإعلانها

<sup>1</sup> - التادلي، ابن الزيات، الشؤف، 126.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، 127.

لغاية تعليمية<sup>1</sup>. وقد برز الرأيان في الرحلات الكرامية في كتاب "التشوف"؛ ففي كرامة الرجل الأسود المجهول الذي يحج كل عام غاب الرجل تماماً بعد أن انكشف سرّه للعامة<sup>2</sup>، وفي كرامة "أبي موسى الدكالي" الذي كان يحج كل عام طلب من الرجل الذي ساعده أن يكتف خبره، وفي الرحلات الكرامية المكثفة في خبر أو في اعتراف أعلنه المتصوف قبل موته تكتم المتصوف على كرامته حتى دهمه الموت، وهذا لغائبتين، أولاًهما: خشية الاغترار، وثانيتها: أنها علم خاص وحال خاصة ينبغي ألا يطلع عليهما من لا يقدر على ذلك. وفي كرامات أخرى تبدو الدعوة إلى الإعلان، كما صرح المتصوف "أبو يعزى" ليخرس منكروها، وليتعلم المریدون، فهي طريقة لتعليم المرید كما في رحلة "أبي صالح واطيل الهسكوري" الذي علم الراغب الخائف أن يضع قدمه حيث يضع هو قدمه، وألا يلتفت إلى الورا<sup>3</sup>. وتبدو هذه الوظيفة شديدة الوضوح في الرحلة الكرامية التي رويت عن عبيد مجهولين، اسم أحدهما موسى، يطيران في المشرق ليؤديا الصلاة في مساجد مكة والمدينة والقدس كل يوم، ويأتیان إلى الشيخ "أبي مدين"، وهو من كبار المتصوفين، ليسألاه متى تكون الصلاة على علم اليقين، ومتى تكون على عين اليقين<sup>4</sup>. وهي أيضاً وسيلة لاختبار المرید لمنزلة جديدة برفقة معلمه، كحال المرید الذي رافق الرجل المجهول في رحلته إلى مكة، وغلبه خوفه فطلب النزول، فحطت به الدابة بمصر، ثم عادت في اليوم الثاني وحملته إلى مكة بعد أن زال خوفه<sup>5</sup>. وهي وسيلة لتأديب المنكر كما فعل المتصوف "أبو تونارت" بالمنكر الشاك حين حمله إلى المشرق وتركه هناك عقاباً له<sup>6</sup>. والوظيفة التعليمية تتصل بالوظيفة الرابعة؛ أي الوظيفة المعرفية، وتتفتح عليها لأن الرحلة الكرامية تمثل بالنسبة إلى المتصوف سبيل كشف ومعرفة، وفيها يرتقي روحياً، ويعبر من الجسد إلى الروح، ويتجرد من الوسائل والأدوات، وتسخر له عناصر الطبيعة وقوانينها، وهي في الآن ذاته وسيلته لبذل معارفه الخاصة للمرید إذا آن أوانها، فيكون لهم هادياً، كما في رحلة "أبي عبد العزيز الركوني" التي قاد فيها صاحبه "وين السلامة" بين الصحو والمنام، فعزفه السبيل إلى مكة، وختم الرحلة بأن أمره بأن يتحفظ من الشيطان كيلا يغرّه لأنه حاز معرفة للخاصة لا للعامة<sup>7</sup>. وتظهر هذه الوظيفة أيضاً في نصيحة "أبي مهدي وين السلامة" لتلميذه المتعجل الراغب في الطيران كمعلمه، فقال: (يا بني، إذا طار الطائر الصغير قبل استكمال نبات ريشه مع الطائر الوافر الريش، فإنما يصبر ميلين ويسقط في القفر فتلقطه الرعيان، وإن الرجال ليصلون إلى مواضع لو طارت الطيور إلى أن يسقط ريشها، وينبت لها ريش آخر، فطارت حتى يسقط، وينبت لها ريش آخر ما وصلتها، ويصلها عباد الله في طرفة عين)<sup>8</sup>.

### الخاتمة والنتائج

بعد تفصيلنا القول في مصطلح العجائبي، ووقوفنا على معنى عجائبية النص الكرامي، وتحليلنا لنصوص الرحلات الكرامية في كتاب "التشوف"، يمكننا أن نكتف النتائج التي توصلنا إليها في خمس، أولاًها: أن النص الكرامي يتمتع بعجائبية خاصة تتمثل عناصر العجائبي، وتضيف إليها ما يتوافق مع طبيعة الكرامة؛ ففي النص الكرامي يتسع

1 - ينظر: الطوسي، المع، 393-394-395-400-403-404.

2 - التادلي، ابن الزيات، التشوف، 139.

3 - التادلي، ابن الزيات، التشوف، 364.

4 - المصدر نفسه، 326-327.

5 - المصدر نفسه، 142-143.

6 - المصدر نفسه، 164.

7 - المصدر نفسه، 261.

8 - المصدر نفسه، 264.

زمن التردد الذي يتصف بالبقاء لا التلاشي بسبب طبيعة النص الكرامي، ويتبدل معيار الحكم بحسب موقف المتلقي القبلي من الكرامة، وتبرز موضوعات شبكة الأنا، وتغيب شبكة موضوعات الأنت، وتنشأ وظائف جديدة متوافقة مع وظيفة الكرامة. وثانيها: أن الرحلات الكرامية تعني فعل انتقال المتصوف الجسدي، انتقالاً عجائبياً يخرق الطبيعة البشرية، وقوانين الزمن والمكان مستعيناً بوسائل عجائبية، أو مكتفياً بقدرته الفردية. وثالثها: تلاشي الوظيفة الأدبية للعجائبي في الرحلات الكرامية المختزلة في خبر، أو في اعتراف للمتصوف، وتعطيل الوظيفة الاجتماعية في حال يقين المتلقي القبلي بأن النص كرامة تحكمها قدرة إلهية، فيقتل العجائبي بغياب التردد، ويدخل النص مباشرة في باب العجيب المقدس. ورابعها: ظهور أثر العجائبي في موقف بعض الشخصيات الشاهدة على الرحلات الكرامية، متمثلاً في الإنكار أو الشك، أو الخوف أو الحسرة. وخامسها: ظهور وظيفتين جديدتين للعجائبي، هما الوظيفة التعليمية، والوظيفة المعرفية.

### المصادر والمراجع

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - أبو ديب، كمال، الأدب العجائبي والعالم الغرائبي في كتاب العظمة وفن السرد العربي، ط1، دار الساقى بالاشتراك مع دار أوركس للنشر، اكسفورد، بريطانيا، 2007.
- 3 - البخاري، صحيح البخاري، ط1، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، 2002.
- 4 - بدران، محمد أبو الفضل، أدبيات الكرامة الصوفية، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، 2013.
- 5 - بدوي، عبد الرحمن، شهيدة العشق الإلهي "رابعة العدوية"، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1962.
- 6 - التادلي، ابن الزيّات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية، 1404 هـ-1984 م.
- 7 - تودوروف، تزفيتن، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصديق بو علام، ط1، دار شرقيات للنشر، القاهرة، مصر، 1994.
- 8 - الجرجاني، علي بن محمد الشريف، كتاب التعريفات، د.ط، د.ت، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان.
- 9 - خليل، لؤي، تلقى العجائبي في النقد العربي الحديث (المصطلح والمفهوم)، راجعه علي أبو زيد، ط1، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، سوريا، 2005.
- 10 - خليل، لؤي، عجائبية النثر الحكائي أدب المعراج والمناقب، دار التكوين، دمشق، سوريا، 2007.
- 11 - خياطة، نهاد دراسة في التجربة الصوفية، ط1، دار المعرفة، دمشق، سوريا، 1994.
- 12 - الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: عبد الستار فراج، مطبعة حكومة الكويت، 1965.
- 13 - زيعور، علي، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ط2، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1984.
- 14 - الطوسي، أبو نصر، اللمع، تح: عبد الحليم محمود وطه سرور، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثني ببغداد، 1960.
- 15 - العطار، فريد الدين، تذكرة الأولياء، تر: محمد الأصيلي الشافعي، تح: محمد الجادر، ط1، دار المكتبي، سوريا، 2009.
- 16 - علام، حسين، العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، 2010.
- 17 - القادري، إبراهيم، الإسلام السري في المغرب العربي، ط1، سينا للنشر، القاهرة، مصر، 1995.

- 18 - القاشاني، كمال الدين، *اصطلاحات الصوفية*، ضبطه: موفق الجبر، ط1، دار الحكمة، دمشق، سوريا، 1995.
- 19 - القشيري، عبد الكريم، *الرسالة القشيرية*، تح: معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي، دار الخير، دمشق - بيروت، 1988.
- 20 - الكلاباذي، أبو بكر، *التعرف لمذهب أهل التصوف*، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994.
- 21 - المحمودي، أحمد، *عامية المغرب الأقصى في العصر الموحدي*، ط1، دار رؤية للنشر، القاهرة، مصر، 2009.
- 22 - مسلم، أبو الحسين، *صحيح مسلم*، ط1، دار طيبة، الرياض، السعودية، 2006.
- 23 - مفتاح، محمد، *مجهول البيان*، ط1، دار توفيق، المغرب، 1990.
- 24 - ابن منظور، *لسان العرب*، أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي، ط3، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 1999.